دراسة تشكلات المكان/ الوطن/ الملجأ

لروايتي

"قلب الظلام" لجوزيف كونراد

و"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح

"مقاربة مقارنة"

إعداد

عنايات عمران أحمد حمادي

باحثة دكتوراه قسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة أسوان

أهمية الدراسة:-

يعد عنصر المكان من العناصر التي لا غني عنها عند إخضاع النصوص الروائية للمقارنة، وذلك لما يحتويه المكان من مدلولات وروابط داخل الإطار العام للسرد الروائي.

عندما تحتل الأماكن بعُدًا حيويًا داخل النص، لتتحول إلي رؤى وأهداف ديناميكية ينتج عنها التفاعل السردي الذي يضفي علي السرد الرونق والشعرية، عبرت الأماكن داخل الروايتين عن مفاهيم متعددة جاءت مناسبة لوضع الأشخاص"مستعَمر – مستعِمر" وما يمثل الوطن لكليهما.

فالأماكن ثابتة ولكن ما تغير هو مفهومها بالنسبة للراويين،فمرة نجدها وطن بكل ما تحمله الكلمة من مشاعر، ومرة أخرى مجرد ملجأ لتحقيق أهداف وأغراض تنوعت من راو لراو أخر.

يحتل الوصف المكاني أهمية بالغة في أطر السرد الحديثة،بوصفه وعاء الأحداث وموطن الشخوص، فهو مكون لا يمكن الاستغناء عنه، سواء من قبل المؤلف عند كتابة النص، أو من قبل النقاد عند تحليل النص الروائي.

حيث " يعيش الإنسان في عالم يتصف ببعدين أساسين هما : الزمان والمكان، ففهيما يحيا الإنسان وينمو الجنس البشري ويتطور.

فالمكان تاريخيًا أقدم من الإنسان، والإنسان بوجوده وكينونته في المكان يعيد تشكيله وتحويله إلي أشكال مختلفة حسب احتياجاته الحياتية، ووفق ثقافته ورغم أن المكان والزمان عنصران متلازمان لا يفترقان، فإن المكان ثابت علي عكس الزمان المتحرك، وهو في ثبوته واحتوائه للأشياء الحسية المستقرة فيه يدرك بالحواس إدراكًا مباشرًا؛ ذلك أن المكان صورة أولية ترجع إلي قوة الحساسية

الظاهرة التي تشمل حواسنا الخمس، علي عكس الزمان الذي يدركه الإنسان إدراكًا غير مباشر من خلال فعله فيه ."[١]

إذ يعد المكان الإطار الحركي للشخصيات التي تؤدى من خلاله ديناميكا الحدث وتنتجه، فلا حدث بدون شخصيات، ولا شخصيات بدون مسرح للأحداث متمثلًا في المكان.

أتاحت الرواية للراوي مساحة شاسعة لتصنيف الأماكن، والاهتمام بها، وتوظيفها لخدمة الحدث العام للرواية.

" لا شك أن المكان يلعب دورًا أساسيًا في أي عمل روائي، لكنه لا يزيد علي غيره من العناصر الأخرى مثل الزمان والشخوص والحبكة والمحتوي، لكن المكان في منتهي يجاوز هذا الدور،حيث يصبح صاحب السيادة المطلقة في إنتاج الشخوص والأحداث، بل إنه ينتج السرد والحوار والوصف ."[٢]

فدائمًا ما يمثل المكان بؤرة الحدث ومحط الاهتمام في الرواية، نقطة الانطلاق للمشكلة والحل علي حد سواء، فبالأماكن تتميز الشخوص وينتج الحدث.

"إن أهمية المكان كمية وكيفية علي صعيد واحد، فالمكان يتسع لاستيعاب مجموعة من الشخوص، ... وعلي مستوي الكيف فمعظم الشخوص لها وظيفة في الرواية تتحرك في ثلاثة مستويات: فاعلة –مفعولة– محايدة بين الفاعلية والمفعولية، لكنها علي كافة مستوياتها تأخذ شرعية وجودها ووظيفتها في عالم المكان، حتى أصبحت الشخوص تعرف بالمكان لا بذواتها ولا بوظائفها، أو لنقل إن المكان يمثل خطًا أساسيًا في مكونات الشخوص ."[٣]

---

[١] – تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ط الخامسة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٦، ص ٢٢٢.

[٢]– بلاغة السرد، محمد عبد المطلب، ٥١٥–٥١٦.

[٣]– المرجع السابق، ص ٥١٧ .

إن ارتباط الشخصية بالمكان والتفافها حوله، يولد شعرية الأحـــداث وانســـجامها، فدائمً ما تعاني الشخصيات الروائية من ارتباطها بمكان معين، ومعانتها عند ترك هذا المكان، أو إقصائها منه تتولد من خلاله أزمة السرد ومحوره، كما تتبلور من خلال هذه الأزمة تواجد الشخصيات وانسجامها سواء بقربها أو بعدها عن الحدث العام للرواية، وكذلك بمدي قربها أو بعدها عن المكان الذي يمثل البؤرة الرئيسية للحدث في أغلب الروايات .

لذلك تحتل العلاقة المكانية مرتبة عالية داخل العمل الأدبي، فتصبح باقي العلاقات أقل أهمية أو مرتبطة بها، كما يري تودروف في " النظام المكاني – إن الأعمال المنتظمة وفق هذا النظام لا تُسمي في العادة قصصًا. وقد كان هذا النمط الذي ترد عليه البنية أكثر انتشارًا في الشعر منه في النثر.

ودُرِسَ بالخصوص في نطاق الشعر وبصفة عامة يمكن أن يعرف هذا النظام بأنه وجود ترتيب معين لوحدات النص مُطرد بشكل متفاوت، وتصبح العلاقة المنطقية أو الزمنية في مرتبة أدني، وقد تختفي. إن العلاقات المكانية بين العناصـــر هـــي التي تكون الانتظام ."[١]

الانتظام في الأحداث، أو في سردها، فدائما ما يعبر المكان عن ارتباط شخصـــي لدي شخصيات الرواية علي مختلف أنماطهم، كما أن إغفال بعـــض الشخصـــيات الارتباط بالمكان يحمل بين طياته محتوي دلالي ورمزي ، يكون المكان هو الباعد الأساسي فيه.

فالمكان هو قلب الرواية ومصنع الأحداث.

منذ بداية تناولنا للروايتين محل الدراسة، كان من الجليً من بداية الســـرد، عقـــدة الهوية، والتفاخر بالانتماء لأماكن معينة، التي كانت بمثابة مصدر ســـلطة وقـــوة لأصحابها.

---

[١]– الشعرية، تزفيتان تودروف، ترجمة/ شكري المخيون ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط أولي، ١٩٨٧، ص ٦٤.

تفاخر الراوي كثيرًا في مجمل روايته بكونه رجلًا إنجليزيًا، فكونه يحمل الجنسية الإنجليزية فهو أفضل من الجميع، وما دونهم من جنسيات أخري لبلدان أخري، فهم أقل منهم كفاءةً وإدراكًا.

وكان هذا التحيز للمكان والتفاخر به منتشرًا من بداية السرد إلي نهايته، مرة بطريق مباشر، وأخر غير مباشرة، مع المحافظة علي الهدف العام في الانتماء للوطن والاعتزاز به.

فهم علي أي حال ليسوا كباقي البشر بل أنهم أصحاب رسالة سماوية للبت في باقي الكون.

" كنت أحمل لكم رسالة سماوية لجعلكم أناسًا متحضرين " الرواية ص ١٤.

ملاحظته القوية بأن مدير المحطة التي أقام بها لفترة عندما غرق قاربه، يترك الأمر لخادمة الزنجي في أن يتطاول علي الرجال أصحاب البشرة البيضاء، وهذا الأمر غير مقبول تمامًا.

" إنه رجل هادئ وقد سمح لخادمه الزنجي القادم من الساحل أن يعامل الرجال البيض بوقاحة مستفزة أمامه تمامًا ." الرواية ص ٣٩.

كما أن من أسوأ الأمور التي كان يرفضها الراوي التفكير بطبيعتهم البشرية، الأمر الذي يجعل تقارب نسبي بينهم، مرفوض تمامًا من قبله، فهم نتاج العصور الأولي التي لم يصبها التطوير.

" ... لا، لم يكونوا بشرًا – لا بأس – وكما تعرف، لقد كان ذلك من أسوأ الأموركالشك بكونهم غير بشر مسألة إنسانية ...وأكثر ما كان قبيحًا هو التفكير في طبيعتهم البشرية كطبيعتكم أنتم، ولعل التفكير في قرابتكم البعيدة مع هذه الجلبة الموحشة شئ بشع، نعم، لقد كان بشعًا بما فيه الكفاية ... أثر لهذا الاشتباه المعتم الباهت المختص بطبيعتهم البشرية بحيث تستطيع أن تفهمها وأنت موغل في القدم عبر ليالي العصور الأولي ."

الرواية ص ٦٢.

تمادي الراوي في التفاخر بانتمائه لبلده وكونه رجل انجليزي ليس فقط علي من استعَمرهم، بل علي أي جنس أخر، استنطق الراوي شخصياته الذين ينتمون إلي بقاع وأجناس أخري وجعلهم يشعرون بالأسف لذلك، ليشعر هو بالتفرد والتميز .

" في حين أدار المهرج الواقف علي الضفة أنفه الأفطس وسألني مبتسمًا :

أأنت إنكليزي؟

صرخت من جهة دولاب الحركة : نعم.

وأنت ؟

تبددت الابتسامة علي وجهه، ثم هز رأسه علامة أسف ولخيبة الأمل التي ألمت به." الرواية ص ٩٢.

لا يتردد الراوي في التصريح بمشاعره ووجه نظرة، التي تمثل واقعة الاجتماعي والسياسي والثقافي في تلك الفترة، هذا الواقع الذي كان يحتم علي كل من يتفق معه أن يكون مع، أو ضد.

إن كنت مع قضيتهم فصرح بذلك دون خجل، دافع عنهم وأضف لهم كل ما يستحقونه من صفات.

أما إذا كنت ضدهم فلا سبيل لك للتعبير عن مشاعرك في جو تسوده الغالبية العظمي المؤيدة لهم.

" نحن البيض وانطلاقًا من نقطة النمو والتطور التي وصلنا إليها يتحتم علينا الظهور أمامهم ككائنات خارقة للطبيعة، وأن نتقرَب إليهم عبر قدرة تتسم بقدرة إله ." الرواية ص٨٧.

وصفة للمدينة التي توجد بها الشركة التي عمل بها بأنها بنيت علي شكل ضريح باللون الأبيض، يفتخر بها كل من يراها، علي الرغم من تغليب اللون الأسود علي جميع الأماكن التي لا ينتمي لها هو شخصيًا بعد ذلك.

" ... وما هي إلا ساعات قليلة جدًا حتى وصلت إلي المدينة، وأعتقد أنها ضـــريح مطلي باللون الأبيض ... لم أجد صعوبة في التعرف علي مكاتب الشركة، فهـــي أكبر بناية في المدينة، وأن كل شخص التقيته كان فخورًا بها . " الرواية ص ١٧.

وصف الراوي بلدته بصفات تدل علي النظام والحضارة، بكافة صـــورها فهـــي مدينة تتمتع بالرقي والذوق العام في تنظيمها،

" بالإضافة إلي بيوت عالية ونوافذ لا تُحصي، مزينة بحاجات فينيسية " الروايـــة ص ١٧.

" بقي شيء واحد لابد من القيام به، توديع خالتي الرائعة، ... قدمت لي فنجانًا من الشاي، آخر فنجان شاي مناسب لعدة أيام، وفي غرفة يغلب عليها الذوق الرفيـــع لسيدة فاضلة، غرفة تتوقعها لفنانة ." الرواية ص ٢٢.

وفي استدراج للقارئ وبعد وصف للمدينة التي كان يعيش بها، وصـــف المدينـــة المناقضة وأنها بلاد بلا حضارة، بلا قانون يحتكون إليه، بلا شوارع، بلا نظـــام نهائيًا .

" فكيف يمكنك تصور وجود منطقة ما تنتمي إلي العصور الوسطي حيـــث كـــان الإنسان طليقًا لا يعترض سبيله شيء، فكيف سنتعامل معه في جو من الوحشـــية التامة دون أي شرطي – عن طريق الصمت – الصمت المطلق؟ حيث لا يوجـــد صوت تحذيري لجار يمكن سماعه يهمس حول الرأي العام، وإن أشياء كهذه قليلة الأهمية تولد الفرق الكبير، فإذا ما رحلوا، عليك الاعتماد علي قوتك الفطريـــة . " رواية قلب الظلام ص ٨٦.

أما هم فإنهم أصحاب حضارة ورسالة سماوية، ليرسم بعد ذلك النقـــيض تمامًـــا ، الذي يبدأ من خلال رحلته إلي نهر الكونغو.

بداية من مقرات الشركة غير الآدمية تمامًا، لكن الجو لا يسمح لهم بـــأكثر مـــن ذلك، كما أنه غير ملائم لتشيد أي بناء، فهم مجرد تجار في مهمة معينة لا يتطلب فيها الوضع أكثر من ذلك.

" كان علي أن أبقي في المحطة عشرة أيام، بدت لي وكأنها دهر بكامله، فمكثت في كوخ مشاد في الباحة كي ابتعد عن الفوضى وكنت أتردد أحيانًا علي حجرة المحاسب التي تم تشييدها أفقيًا بألواح خشبية ثقيلة وقد صفت جنبًا إلي جنب بشكل غير منسق،... في حين أن الحر لا يطاق في داخلها، علاوة علي مجموعة ذباب من الحجم الكبير، تطن بشكل شيطاني مقيت جدًا، ومع أنها لا تلدغ إلا أنها تطن . " الرواية ص ٣٣.

فهم هنا أخيرًا للحصول فقط علي العاج الثمين، الذي لا يقدر بثمن، هذه هي مهمتهم الحضارية المزعومة.

" باخرة مكتظة بالبضائع المصنفة، نفايات القطن وخرزات المسابح والأسلاك النحاسية، تنقل كل هذه البضائع خفية تحت جنح الظلام، يُدفع ثمنها بقطع العاج النادر الثمن ." الرواية ص ٣٣.

" تبيَن لي بعد أن طرحت عليه عدة أسئلة بأن السيد كورتز يتولى إدارة مركز تجاري مرموق حاليًا، مركز علي جانب من الأهمية في بلد العاج بل وفي جوفه، ولديه المقدرة علي إرسال العاج بكمية وافية تضاهي كل ما يقدمه الآخرون مجتمعين ." الرواية ص٣٤.

انتماء الراوي لمكانه وبلدته ولقومه، أصحاب العلم والحضارة ،جعله ينظر لمن هم دون ذلك علي أنهم قوم جهله لا يدركون الزمان، بل أنهم قوم بدائيون، لا تحكمهم قوانين ولا قواعد .

" ... وقد التزموا بالعمل هنا علي المركب لستة أشهر (لا أظن أنَ أيًا منهم يملك فكرة واضحة تتعلق بالزمن كما امتلكناه نحن، منذ عصور لا تحصي، ولازالوا ينتمون إلي الصور البدائية، وهم لا يملكون تجربة بالوراثة كي تفيدهم بحقيقتهم الراهنة ." الرواية ص ٧١.تحول المكان هنا من مجرد مكان علي الأرض إلي وطن نحبه وندافع عنه، ونضرا عنه شبه التشابه مع الأخر لمجرد، كونهم بشر.

إن الحديث عن الأماكن هنا في الرواية يسير علي شكل خطوط متوازية تسير جنب إلي جنب، ولكن دون نقطة التقاء واحدة .

الراوي هنا يمجد وطنه، ويقلل من أهمية وقيمة باقي الأماكن، " إلا أن المكان يمكن أن يلعب دورًا مهمًا في السرد، وأن السمات أو الوصلات بين الأماكن يمكن أن تكون مهمة وتؤدى وظيفة موضوعية وبنيوية كوسيلة للتشخيص ." [١].

لم يترك الراوي موضع إلا و تفاخر بأصله الانجليزي المتحضر، والانتماء له، حتى علي مستوي الطبيعة، واتضح ذلك من بداية السرد أيضًا، فنهر التايمز بطابعته الساحرة، يختلف تمام الاختلاف عن نهر الكونغو الذي شبهه بأفعى .

" إن اتصال نهر " التايمز" بالبحر يمتد أمنانا لتبصر بداية لا نهاية لها ولمجرى مائي في عرض البحر، فتبصر البحر والسماء ملتحمين بلا أي رابط يشدهما إلي بعضهما البعض،... سرعان ما طرا تغيير علي المياه وبدا الصفاء أقل تألقًا ولكن أكثر عمقًا،... فقد اعتاد أن يبسط نفسه ويمتد بزهو وقور يليق بمجراه المائي، حتي يصل إلي أقصي اليابسة." الرواية ص ٧،٨.

ليتحول الوصف إلي النقيض تمامًا عندما يتوجه بالوصف إلي الطبيعة المغايرة والمناقضة له، فهو قادمًا من نهر التايمز، الذي يعرفه تمامًا، إلي نهر يثير في نفسه هواجس ومخاوف من ظلام في أماكن لا تتوق لها نفسه.

"... لقد عاد المكان مظلمًا من جديد، لكنه يضم نهرًا كبيرًا جبارًا حيث يمكن رؤيته علي الخارطة بأفعى ضخمة مفككة يقع رأسها في البحر، بينما يتجه الجسم منحنيًا إلي مسافة بعيدة، في حين يغوص ذيلها في أعماق اليابسة، لقد جذبني إليها وافتتنت بها، تلك الخريطة المعلقة داخل واجهة المعرض في المحل، ولقد جذبتني كما تفعل الأفعى مع عصفور ولكن عصفورًا أحمقًا، ثم سرعان ما تذكرت تلك المؤسسة الكبيرة، وهي شركة تهتم بالتجارة المتعلقة بذلك النهر ." الرواية ص ١٤-١٥ .

---

[١]- المصطلح السردي، جيرار جينت، ص ٢١٤ .

ومن المفارقات الفنية في النص الروائي (قلب الظلام) أنــه يخضــع للمقارنــة المكانية في بنيته السردية، لينتقل المكان من مجرد وطن، إلي ملجــأ يــوفر لهــم الثروات والمال.

تعامل الراوي مع كل نمط من هذه الأماكن بما يناسبه من وصف، يليق بالحــدث ويجسده.

فالمكان هنا احتل بعُد إيحائي صرف، " إن أخذ الحيز المكاني في الاعتبــار هــو الذي أدي إلي تطبيع العناصر المؤسسة للرواية الأخرى في الثقافة العربية ." [١]

تناول الراوي مكانين في آن واحد في روايته، مرة كوطن ،ومرة كملجأ لتحقيــق أغراضهم الاستعمارية المزيفة.

كما أن هذه ليست المفارقة الوحيدة في الوصف المكاني في دراستنا هذه، فبالنظر إلي رواية (موسم الهجرة إلي الشمال) نجد أن الراوي أقام أيضًا المقارنات بــين المكان كوطن والمكان كملجأ.

وكأننا علي مرمي العصور والأزمان نتخيل كيف تناول كلاً من الكــاتبين مكــان الأخر ليصبح الوضع كالأتي:

أوربا	الوطن	الراوي في قلب الظلام
أوربا	الملجأ	الراوي في موسم الهجرة إلي الشمال
أفريقيا	الوطن	الراوي في موسم الهجرة إلي الشمال
أفريقي	الملجأ	الراوي في قلب الظلام

[١]– شعرية المكان في الأدب العربي الحديث، بطرس الحلاق، روبن أوستل، شتيفن فيلد، ترجمة/ نهي أبو سديرة وآخرون، المركز القومي للترجمة، ط أولي، ٢٠١٤م، ص ١٤.

تعلق الراوي بوطنه، وعبر عن ارتباطه بالمكان، كما أنه وصف الملجأ في المقابل بكل ما يلزمه من وصف مناقض تمامًا لوصف وطنه، ومعبرًا أيضًا عن حالته الانفعالية والوضع الاجتماعي والسياسي الذي كان يعيش فيه.

" عدت إلي أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة، ... كنت خلالها أتعلم في أوربا، ... عدت وبي شوق عظيم إلي أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحني النيل، ... واستيقظت ثاني يوم وصولي، في فراشي الذي أعرفه في الغرفة التي تشهد جدرانها علي ترهات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها وأرخيت أذني للريح. ذاك لعمري صوت اعرفه، له في بلدنا وشوشة مرحة. صوت الريح وهي تمر بالنخيل غيره وهي تمر بحقول القمح ...أحس أنني لست ريشة في مهب الريح، ولكني مثل تلك النخلة، مخلوق له أصل، له جذور له هدف ." الرواية ص ١٢.

بلده صغيره علي ضفاف النيل لها تاريخ، تتمتع بالدفء والهدوء، هكذا هو عالمه الذي يعرفه وعاش به طوال حياته.

إنه الوطن الذي ينتمي إليه، في المقابل يأتي وصف أوربا التي يعتبرها الراوي مرحلة صعبة في حياته؛ ما دفعه للعيش فيها، فقط طلبه للعلم، وبمجرد حصوله عليه، عاد إلي قريته وأهله.

بلاد تعيش حياتها مغلفه في قوالب الثلج، بعيده كل البعد عن الدفء، الذي يحمل بعدًا رمزيًا في الرواية، لا يعني فقط الدفء المكاني ولكن الترابط والوجود المجتمعي بكافة أعرافة وتقاليده .

" ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة أن وجدتني حقيقة قائمًا بينهم، فرحوا بي وضجوا حولي، ولم يمض وقت طويل حتى أحسست كأن ثلجًا يذوب في دخيلتي، ذاك دفء الحياة في العشيرة، فقدته زمانًا في بلاد " تموت من البرد حيتانها " الرواية ص١١.

حرص الراوي في موسم الهجرة إلي درأ الشبه عن بلاده، وكأنه يخاطب الراوي في قلب الظلام، ولكنه رد عليه بحرصٍ وحذرٍ شديدين، لم يدافع عن وطنه بسب

الأخر، ولكن حاول إثبات الواقع ونقيضه من خلال نقاط محكمة، فندها وقدم أسبابها والهدف منها.

لم يزور أو ينقل صور مشوشة بل التزم الحياد الموضوعي في نقل الواقع، ما له وما عليه، مع محاولة إثبات ذاته، وقوة وعراقة مكانه الذي ينتمي إليه.

ربما ردوده الدبلوماسية هذه هي الفرق بين قلب الظلام والهجرة إلي الشمال.

" سألوني عن أوربا. هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟ هل المعيشة غالية أم رخيصة؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء؟ يقولون أن النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال. وسألني ود الريس: " هل صحيح أنهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام؟"

أسئلة كثيرة رددت عليها حسب علمي. دهشوا حين قلت لهم أن الأوربيين، إذا استثنينا فوارق ضئيلة، مثلنا تمامًا، يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد والأصول، ولهم أخلاق حسنة، وهم عمومًا قوم طيبون ." الرواية ص ١٣.

وصف الراوي قريته التي يعرفها جيدًا والتغيرات التي طرأت عليها، إذن هم أصحاب الأرض الأصليين، أكد علي أهمية المكان النفسية والاجتماعية بالنسبة له.

" أنني أعرف هذه القرية شارعًا شارعًا، وبيتًا بيتا، واعرف، ... والقبور أيضًا، اعرفها واحدًا واحدًا، زرتها مع أبي وزرتها مع أمي وزرتها مع جدي، واعرف ساكنيها الذين ماتوا قبل أن يولد أبي والذين ماتوا قبل ولادتي، ... والحقول أيضًا أعرفها، منذ كانت سواقي، وأيام القحط حين هجرها الرجال وتحولت الأرض الخصبة أرضًا بلقعًا تسفوها الريح. ثم جاءت مكنات الماء وجاءت الجمعيات التعاونية، وعاد من نزح من الرجال، وعادت الأرض كما كانت،... كل هذا رأيته منذ فتحت عيني علي الحياة ." الرواية ص ٥٧-٥٨ .

ولكن بين الحين والأخر يتوجه الراوي إلي مخاطبه الأخر الذي احتل بلاده واستغلها، لتصبح الأماكن لها هدف لتحقيق أغراضهم الاستعمارية، إن قيام الراوي بتقسيم الأماكن وتواتر وصفها وكثرة دلالتها، يعبر عن ماهيه المجتمع في

هذه الفترة التي اعتبر الاستعمار فيها أمر ضروري للحفاظ علي الكيان الأوربـــي وبسط نفوذه.

ليتجه الراوي إلي غريم أخر داخل النص، عاني من فقــدان الإحســاس بأهميــة الوطن والانتماء له، فجميع الأماكن بالنسبة له عبارة عن محطات في حياتــه لــم يعيرها أي اهتمام.

عاش حياته في قبيلته عندما كان طفلًا صغيرًا دون أن يشعر فيها بأي رابط بينــه وبين قومه، لذلك كان دائما يشعر بأنه شخص مختلف بينهم، ثم انتقل إلي القــاهرة ليكمل تعليمه دون أن تربطه بها أي صله، فهي مجرد مكان عابر في حياته.

لتأتي المحطة الأهم والأكبر وهي حياته في أوربا وما حدث له من صدمات انتهت بمقتله لزوجته وعودته مرة أخري إلي القرية.

عاش فيها، تزوج وأنجب، ولكن ليست هي موطنه الأصلي، ولا تربطه بهــا أي صله، كما أنه لا يحمل أي ذكريات له فيها، لذلك قــرر الهــروب أو المــوت أو العودة مرة أخري إلي الترحال.

" أنني لا ادري أي العملين أكثر أنانية، بقائي أم ذهابي. ومهما يكن فأنه لا حيلــة لي،... لا جدوى من خداع النفس. ذلك النداء البعيد لا يزال يتردد في أذني. وقــد ظننت أن حياتي وزواجي هنا سيسكتانه. ولكن لعلي خلقت هكذا، أو أن مصــيري هكذا، مهما يكن ذلك، لا أدري. أنني اعرف بعقلي ما يجب فعله،... ولكن أشــياء مبهمة في روحي وفي دمي تدفعني إلي مناطق بعيــدة تتــراءى لــي ولا يمكــن تجاهلها. واحسرتي إذا نشأ ولداي، احدهما أو كلاهمــا، وفيهمــا جرثومــة هــذه العدوى، عدوي الرحيل، ... لا أدري متى أذهب يا صــديقي ولكننــي أحــس أن ساعة الرحيل قد أزفت، فوداعًا." الرواية ص ٧٦-٧٧.

ورد ذكر جميع المشاهد في الفصول السابقة من الدراسة -

لم يتطرق الراوي إلي كل ما سبق هباءً، أو لمجــرد الســرد الروائــي والحبكــة الدرامية.

بل أنه يحَملُ كل تلك المواقف من الإيحاءات كل ما يريد أن يقول ، ولكن تـــرك القول للنص يتحدث ويخبر كل من يريد البحث بما يحب أن يسمع.

أنها الأوطان ، متى نحنو إليها ونشعر بالانتماء لها؟ وكيف نعيش في الملجأ مهما كان الغرض منه؟ سواء للتعليم أم للثروة، فسواء هذا أو ذاك لا نشعر نحوه بأي

عاطفة، بل يصيح بالنسبة لنا مجرد وسيلة، ونصبح نحن بالنسبة له جرثومة تلوثه وتنقل العدوى لكل من يقترب منها.

إنما يفعل ذلك بغيه البرهنه علي العلاقة بين المكـــان والشخصـــية فـــي الـــنص الروائي.

كما أن اختلاف هذه الصفات وتنوعها من مكان لآخر في الفضاء الروائي، يمكـــن أن يعكس لنا الفروق الاجتماعية والنفسية والأيدلوجية لدي شخوص الرواية.

هذا فضلًا عن أن الدلالات النابعة من هذه الفروق يمكن أن تكون تعبيرًا عن رؤية شخوص الرواية للعالم وموقفهم منه، كما قد تكشف عن الوضع النفسي للشخوص وحياتهم اللاشعورية، بحيث يصير للمكان بعُد نفسي يسبر أغوار النفس البشـــرية، عاكسًا ما يثيره المكان من انفعال سلبي أو ايجابي في نفس الحال ." [١]

تمادي كلاٌ من الكاتبين في وصف البيئة المحيطة بهم، ثم انتقل كلاَ منهمـــا إلـــي وصف بيئة الآخر، ولكن مرة كوطن ومرة كهدف.

لتصبح الأماكن مفتاح من مفاتيح فك شفرات النص، وفهم بنيته الداخلية. لما لها من أبعاد إيحائية يلتف حولها جميع شخصيات النص، محدثين الصخب الروائـــي بطبعة السردي المميز.

و لما كان المكان لا يعيش بمعزل عن باقي عناصر الرواية، وإنما يعد مكون من مكونات الحكائية للسرد، كالشخصيات والزمان والأحداث والرؤي السردية، فـــإن

[١]- إستراتيجية المكان، مصطفي الضبع، ص ١٠٩.

عدم قراءته ضمن هذه العلاقات والصلات يجعل من العسير فهمه داخل السرد الروائي، لذلك وجب علينا دراسته كعنصر أساسي ضمن عناصر السرد .

" وغني عن البيان أن ثمة علاقة تأثير وتأثر بين المكان والشخصيات الروائية – رئيسية وثانوية – إذ يعد المكان عنصرًا أساسيًا في تشكيل بنية هذه الشخصيات، كما أنه لا يتشكل إلا من خلال اختراق هذه الشخصيات له وظهورها فيه بمميزاتها

والأحداث التي تقوم بها فيه، الأمر الذي يؤكد لنا أن المكان حقيقة معاشة، ويؤثر في البشر بنفس القدر الذي يؤثرون فيه ." [١]

فمن الخطأ إذن الاعتقاد بانفصال المكان عن تأثير الإنسان القاطن به، ذلك أن علاقة التأثير والتأثر بين المكان والإنسان تتوقف من خلال الدور الذي يلعبه كلا منهما إزاء الآخر؛ فالمكان يكشف عن شخصية الإنسان، بينما يعطي الإنسان للمكان قيمته من خلال تجربته فيه .

لذلك كان إخضاع الأماكن للدراسات المقارنة يزيد من فهم النص، وتوضيح مساراته الإيحائية.

وذلك بوضع كلٌ من النصين في وضع مقارب، من النص الأخر، واستخدام كافة أدوات المقارنة التي تعلي من قيمة الأماكن داخل الإطار السردي .

---

[١]– مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ص ٨٣.

نتائج البحث:-

عندما يصبح المكان محور الحدث، وقلب العمل الروائي، تزداد الحبكة السردية والدرامية أيضًا، فالمكان تجرد من كونه مجرد هيكل علي أرض الواقع، ليتحول إلي وطن مرة، وإلي ملجأ مرة أخري.محددًا بذلك طبيعة النص وتفرده .

تعد الرواية من أكثر الأنواع الأدبية تعبيرًا واستيعابًا للواقع، حيث أرخت الرواية بشكل دقيق لأهم الفترات التي عاشها الإنسان، كما أن الرويـة لا تكتفي بسرد الحوادث التاريخية، بل تسمح لكتابها بالتعبير عن مشاعرهم علي لسان أبطالهم.

أن أهمية الأدب المقارن بين الأعمال الروائية تكمن في نقاط التلاقي والتقارب التي تكتشفها المقارنة بأدواتها الخاصة بين الأعمال المختارة دون الاكتراث بفواصل الزمن.

كتب جوزيف كونراد روايته (قلب الظلام) في محاولة منه للحفاظ عن هويته الخاصة وتسجيل تأريخ أمته، التي تعاطف مع مشروعها الاستعماري وأيده

دافع الطيب صالح عن هويته ومعتقداته الخاصة، كما اشار إلي أن دور الاستعمار في حياتهم وقتي، فهو الدخيل، أما هم فإنهم أصحاب الأرض

تلاقي كلٌ من الكاتبين في طرح أفكارهما حول مفهوم الهوية، والحفاظ عليها، علي الرغم من تناقض الظروف المحيطة بهما.

المصادر والمراجع

المراجع العربية :-

- إستراتيجية المكان، مصطفي الضبع، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٨.

- بنيه الشكل الروائي، حسن بحراوي، ط أولي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠.

- قضايا النقد الأدبي المعاصر، سمير حجازي، الفكر الحديث، الدار البيضاء، ١٩٨٣.

- بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، بدري عثمان، ط أولي، بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦.

- بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، بدري عثمان، ط أولي، بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦.

- في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عبد الملك مرتاض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨.

- القارئ والنص من السيميوطيقا إلي الهيرمنيوطيقا، سيزا قاسم، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يونيو١٩٩٥.

- بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، سيزا قاسم، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٤.

- الرواية العربية الحديثة، محمد الباردي، ط أولي، اللاذقية، دار الحوار، ١٩٩٣.

- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، القاهرة، دار المعارف.

-بنية النص السردي، حميد لحمداني، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط أولي، ١٩٩١.

- تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ط الخامسة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٦.

المراجع المترجمة للعربية :-

- مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ترجمة/ سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة، ربيع ١٩٨٦.

- الشعرية، تزفيتان تودروف، ترجمة/ شكرى المخيون ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط أولي، ١٩٨٧.

- عالم الرواية، رولان بودنوف وريالاوئيليه/ ترجمة نهاد التكرلى، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩١.

- شعرية المكان في الأدب العربي الحديث، بطرس الحلاق، روبن أوستل، شتيفن فيلد، ترجمة/ نهي أبو سديرة وآخرون، المركز القومي للترجمة، ط أولي، ٢٠١٤م.

- الفن والتصور المادي للتاريخ، جورج بليخانوف، ترجمة/ جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط أولي، بيروت، ١٩٧٧.

- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة/ غالب هلسا، ط ثالثة، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٧.

المراجع الأجنبية :-

-Claude Prevost :Litterature, Politique, Ldeologie, EDITIONS SOCIALES, Paris 1973.

-Alain Robbe – Grillet ; Pour un nouveau Roman, Paris, Gallimard, 1963.